المأزق الذاتي للصهيونية

حين يستنفد مشروع «ريحيّته»

. فيليب زويْن* .

مقدمة

يتحمل المشروع الصهيوني في الشرق الأوسط قسطًا كبيرًا من مسؤولية المعاناة والمآسي الإنسانية في هذه المنطقة من حروب وتهجير ودمار ومجازر، ناهيك عمّا يَتْبع ذلك ويرافقه من تكاليف الدمار والتدهور الاقتصادي، إنْ بسبب ذلك المشروع مباشرةً أو غير مباشرة. وقد عانى الشرقُ الأمرّيْن ولا يزال من هذا المشروع، منذ أكثر من قرن كامل ولو لم يوجد المشروع الصهيوني، وخاصةً لو لم يتحقق الكيان الصهيوني عام ١٩٤٨، لتغيّرتْ مجرياتٌ كبرى في تاريخ الشرق، ولما شابَهَ تاريخُ المنطقة كليًا ما كانه في القرن الماضي.

ومن الطبيعي لمشروع بهذه الضخامة، وبهذا الحجم من الأضرار، وبهذا التمويل و«التشريع» الدوليّيْن، ان يكون مركزَ الثقل الأول في التاريخ الحديث للشرق، وجديرًا بالاهتمام والدراسة، لا من حيث تجسيداته على أرض الواقع فحسب، بل أيضًا من حيث المنطلقات الفكرية والسياسية والاجتماعية التي قام عليها

من زاوية النظر هذه نرى أنّه بالرغم من كلّ الجبروت والعربدة الظاهريْن للكيان الصهيوني، فإنّ المشروع الصهيوني برمّته يَفْقد بشكل متواصل أهليتَه الذاتيةَ للاستمرار، ويمرّ بمرحلة احتضار تدريجي، سياسي - فكري - أخلاقي، بحيث لا يتبقى منه سوى ما كان يمثّله في الأساس، بالنسبة إلى المتموّلين اليهود الكبار، أيْ بوصفه في الصميم لا أكثرَ من «مشروع ماليّ» في خدمة مشاريع التوسع الاستعماري في الشرق

عن المأزق الذاتي لهذا المشروع، أسبابِه الداخلية والخارجية ونتائجِه، سنحاول أن نلقي بعضَ الضوء

نكران الآخر برغم وجودِه وتصاعُدِ قوته

نكران الآخر هو الحجر الأساسي في العقيدة الصهيونية وأعمالها. نشير في البدء إلى كتاب ثيودور هرتزل **دولة اليهود**، الذي طُبع عام ١٨٩٦ واعتُبر بمثابة الإنجيل الذي بُنيتْ عليه العقيدةُ الصهيونية والكيانُ الصهيوني يناقش هرتزل في كتابه احتماليْن لإقامة الدولة اليهودية، في الأرجنتين أو فلسطين وخلال الصفحات المئة والعشرين لهذا الكتاب، لا يوجد أيُّ ذِكْرٍ للسكان الأصليين لفلسطين، ولا للعرب عمومًا. فقط في احتمال الأرجنتين يشير إلى «أنّ دولة الأرجنتين ستكون شاكرةً للصهيونية في حال إقامة الدولة على أراضيها[!]»[١] وقد تصرّف هرتزل وكأنّ فلسطين فارغة من سكانها أو هي صحراء خالية لا وجود فيها لأيّ معالم إنسانية أو لأثر إنسان أو حضارة.

وقام دايڤيد بن غوريون (١٨٨٦ - ١٩٧٣)، وهو أولُ رئيس وزراء للكيان الصهيوني والتلميذُ النجيب لهرتزل، بمتابعة خطّ معلمه، فأدرج القولَ الشهير «أرض بلا شعب لشعب بلا أرض.» وفي مقالة بعنوان «نحو المستقبل» تعود إلى العام ١٩١٥،[٢] يؤكّد بن غوريون «أنّ أرض إسرائيل صحراء مغمورة بالأنقاض القليل من العرب الذين يعيشون فيها لا يستطيعون أن يعطوا لها الحياةَ وأن يرفعوا الأنقاض» وفي افتتاح أول كونغرس للعمّال اليهود في نيويورك في آب (أغسطس) من ذلك العام، يعود بن غوريون ليؤكّد «أنّ فلسطين صحراء خالية بنسبة ٩٠٪.»[٣] وفي خطاب آخر في تشرين الأول (أكتوبر) من العام نفسه في كليڤلند، يؤكّد بن غوريون

---

* - مهندس وباحث لبناني

١ - Theodor Herzl, **l'état des juifs**, traduit de l'allemand par Claude Klein, Editions la découverte, 1990, p. 46.

٢ - ٣ - David Ben Gourion, **Memoires, Israel avant Israel**, traduit de l'hebreu par Erwin Spatz, Editions Grasset et Fasquelle, Paris, 1974, p. 80, 84.

من أسطع الأدلة على زعزعة أسس تفوق «إسرائيل» هزيمتُها في جنوب لبنان عام ٢٠٠٠

مـجـدِّدًا «أنّ فلسطين خـاليـة، ومن ثم يُمْكن أن تُسْترجع لصالح اليهود، لأنّها صـحـراء ومـهملة، لكنّهـا قـابلةٌ للتطوّر الاقتصـادي. فهنا يوجد إمكانية لوطن لليـهـود. إنّ السكان الحـاليين للبلد، الفقـراء والقليلي العدد، لن يستطيعوا تطويرَ إمكانيات البلد وأن يَضْمنوا لـه المستقبلَ الذي كُتب لـه.»[١]

لكنْ عندمـــا بلور هرتزل المشـــروع السياسي الصـهيوني في كتاب **دولة اليهود**، كان ما يُدعى حاليًا دولَ العالم الثـالث مـسـتـعـمَـرًا من قـبل القـوى الأوروبيـة، وكـان الشـعبُ الـعـربي ينوء تحت حكم عثماني مستبدّ وجائر منذ حوالى أربعمائة عام، ويرزح تحت نير الأميّة والجهل المفروض من الخـارج. كـمـا كـان الشـعب الفلسطيني المكوَّن آنذاك من سبعمئة ألف شخص يعاني وضعًا مماثلاً. إلاّ أنّ الأوضاع وموازين القوى تغيّرتْ بعد مائة عام، لا بل أقلّ من ذلك:

فـالدول العـربيـة اسـتـقلّتْ وأَصْبح لهـا جيوشُـها، والأميةُ تدنَّتْ بشكل ملحوظ، وغدا للعرب كادراتُهم واختصاصيوهم واقـتـصـادُهم، ولم يعـد الشـعبُ الفلسطيني كمـا كان من قبل. والدليل الأبرز في هذا المجال مـا يقـولـه أرييل شـارون في مذكراته التي صدرتْ عـام ١٩٩٠؛ فـهـو يشـدِّد على أنّه «لن يكون بمقـدورنا من الناحـيـة العـسكرية أن ندافع عن الكيـان الصـهـيوني في حـال تخلِّينا عن الضـفـة وغـزة للعـرب.»[٢] ويرفض شـارون مـقـولـة «انّ التـفـوقَ الاجـتـمـاعي والتـقني والصناعي لإسرائيل جدٌّ واضح، بشكل لا يتْرك أيَّ أمل للعرب في المقدرة على اللحاق بها،» ويزيد قـائلاً إنّ خـبرته على الجـبـهـات تزيده اقـتناعًا بعدم الموافـقـة على هذه المقولة.[٣]

ومن أسطع الأدلة على زعـزعـة أسس تفـوّق الكيـان الصـهـيـوني الـهـزيمةُ والانسـحـابُ العـشـوائي لجيـشـه في جنوب لبنان عـام ٢٠٠٠ تحت ضـربات المقـاومـة، دون أن تتـاح لـه فـرصـةُ الانسحاب الاستراتيجي المنظَّم ضمن اتفاق لـ «وقف إطلاق النار.» وهكذا فإنّ «الجـيـش الأسطورة الذي لا يُقـهـر،» والذي تتـباهى غـولدا مـائير بأنّه «أَسَرَ خمسةَ آلاف جندي مصـري في حرب ١٩٥٦ من أصل ثلاثين ألفًا كانوا تائهين في الصـحـراء من أجل مـبـادلتـهم بالجندي الإسـرائيلي الوحيد الذي وَقَعَ في الأسـر لدى المصـريين،»[٤] والذي دَمَّرَ الأسطولَ الجوي العربي في بضع ساعات عام ١٩٦٧، انسحب مذلولاً بلا قيد أو شرط من الجنوب اللبناني تاركًا وراءه منشـآتٍ عـسكريةً أَنفق عليـهـا عشراتِ ملايين الدولارات.

اليهود يواجهون الصهيونية

كان اليهود أنفسُهم من أوائل المشكِّكين بالمشروع الصـهـيـوني. ومن أبسط الأمثلة على ذلك أنّ الناشـر اليـهـودي كرونبـاخ[٥] رفض أول عـرض لهـرتزل لطباعة كتابه لأنّه اعتبر أنّ ما جاء فيه غيـرُ صـحـيح، فـاضطرّ هرتزل إلى أن يَعْرضـه على دُور نشـر أخرى عـديدة حـتى تمت لـه طبـاعتُـه. ولئن انتـزعت الصـهيونية وكالةً حصريةً عن اليهود، فهي انتزعتْها بفعل تحالفاتها الدولية، وباستخدام كلّ الوسائل مشروعةً كانت أو غير مشروعة، وأحيانًا كثيرة بطرق قذرة.

يعـود تشكيكُ الكثـيـر من اليــهــود بالمشـروع الصــهـيـوني إلى أسـبـاب عـديدة، منهـا مـصـداقـيـةُ الصـهـاينة والغـايات الحـقـيـقـيـة التي تقف وراء مشـروعـهم. وكان ولا يزال من الصعب

١ ـ المرجع السابق، ص ٨٧

٢ ـ ٣ ـ Ariel Sharon, **Memoires**, traduit de l'hebreu par Gabriel Roth, Editions Stock, 1990, p. 247, 248, 427, 314.

٤ ـ Golda Meir, **Ma vie,** Editions Robert Laffont, 1975, p. 319.

٥ ـ Theodor Herzl, **l'état des juifs**, op. cit, p. 5.

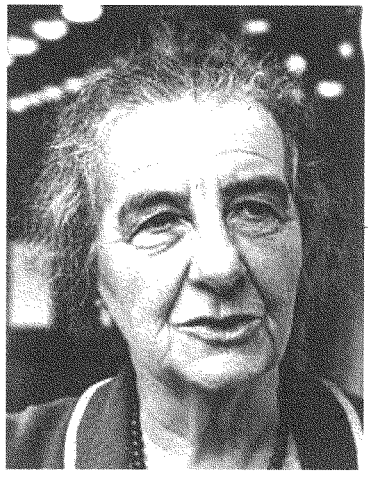

غولدا مائير لم تستطع أن تُقْنع شقيقتها وزوجها بالهجرة إلى الكيان الصهيوني

على الصهيونية تبريرُ طرد شعب بأكمله بحجّة رجوع شعب آخر إلى أرضٍ سبق أنْ عاش فيها منذ ألفيْ عام. فعلى مرّ التاريخ تنقلتْ شعوبٌ كثيرةٌ من أماكن إلى أخرى لأسباب كثيرة، فلِمَنْ تعود الأحقيةُ بالرجوع إلى هذه الأرض: أللأقدم الذي سَكَنها، أمْ للذي سكنها مدةً أطول؟ ومَن الذي يُحدّد مَنْ هو الأقدم؟ نعرف أنْ لا شيء ثابتًا في علم الآثار، إذ كلما كَشَفت التنقيباتُ عن آثار جديدة، تكشّفتْ حضاراتٌ أخرى قديمةٌ جدًا، وقد يتغير كليًا الكثيرُ من المعطيات التاريخية القديمة. وإذا أرادت كلُّ شعوب العالم أن تَطْرد من الأرض، التي عاشت فيها مئةَ عام، أو أكثرَ أو أقلَّ، الشعبَ الذي يعيش فيها حاليًا، فأيُّ فوضى دولية ستَحْدث حينئذ؟! ولعلّنا نذكّر هنا بما قاله مسؤول صيني حين طلبتْ غولدا مائير من زميلها الإيطالي في الاشتراكية الدولية بيترو نيني، وكان يودّ زيارة الصين، أن يحاول نسجَ خيوط بين «إسرائيل» والصين. فقد قال ذلك المسؤول: «إذا كانت كلُّ مجموعة من ثلاثة ملايين نسمة تضع في رأسها فكرةَ تكوين دولة، فإلى أين يذهب العالم؟»[1]

ومن الأدلة على تشكيك اليهود بالمشروع الصهيوني أنّ غولدا مائير التي كانت تجوب العالم لتحريض اليهود على التبرّع للكيان الصهيوني و«العودة» إلى فلسطين لم تستطع هي نفسُها أن تُقْنع شقيقتَها (التي تَرْأس «اتحادَ المجلس اليهودي» في مدينة بريدجپورت في ولاية كونتيكت في الولايات المتحدة) وزوجَ شقيقتها اليهودي بأنّ يهاجرا إلى الكيان الصهيوني ليلتحقا بباقي أفراد عائلتهما في فلسطين![2]

دليل آخر ساطع هو قضية هجرة اليهود السوفيات. فمن المعروف أنّ تأشيرات الخروج التي يعطيها الاتحاد السوفياتي لليهود كانت لا تَسْمح سوى بالسفر إلى الكيان الصهيوني تحت ذريعة «جمع شمل العائلات.» ولكنْ في فيينا كان الكثير من المهاجرين يغيِّرون وجهةَ سفرهم إلى الغرب، وخاصةً إلى الولايات المتحدة الأميركية. ومنعًا لذلك غيّر الكيانُ الصهيوني مسيرةَ سفرهم عبر بوخاريست ووارسو بدلاً من فيينا. والشيء ذاته يقال عن يهود الولايات المتحدة وفرنسا. ففي نيويورك وحدها يوجد أكثرُ من أربعة ملايين يهودي، وليس ثمة إلاّ قلةٌ على استعدادٍ للذهاب إلى الكيان الصهيوني. وعلى الضد من ذلك، فقد بدأت الهجرةُ المعاكسة من هذا الكيان. حتى إنّ أولاد مناحيم بيغن وأحفاده غادروا هذا الكيان إلى الولايات المتحدة الأميركية.

دليل آخر على تشكيك اليهود بالمشروع الصهيوني أنّه في كلّ الحروب الوطنية تستبسل الشعوبُ في الدفاع عن أرضها والعالم كلّه يرى آلافًا من الشباب العرب المؤمنين بقضيتهم مستعدين لتقديم أنفسهم قربانًا على مذبح الشهادة في الدفاع عن حقهم وأرضهم. وبالمقابل، كم صهيونيًا مستعدًا ليضحّي بنفسه «للقضية» الصهيونية، علمًا أنّ اليهود القدماء هم أصحاب أسطورة «قلعة مسادا» التي فَضّل فيها المحاربون الانتحارَ على الاستسلام؟!

ومثل آخر لا أخير على تشكيك اليهود في المشروع الصهيوني هو رفضُ العالم الكبير ألبرت آينشتاين (١٨٧٩ ـ ١٩٥٥) رئاسةَ الكيان الصهيوني بعد أنْ عَرَضَها بن غوريون عليه مرتيْن: مرةً عند تأسيسها، ومرةً عند وفاة وايزمن. وألبرت آينشتاين هو القائل إنّه إذا «كنّا» (أي اليهود) نذهب إلى فلسطين لتشكيل دولة يهودية رغمًا عن العرب، فهذا يعني أنّنا لم نتعلّم شيئًا من تاريخنا طوال ألفيْ سنة.

الازدواجية والتعمية في الصهيونية

من الوجوه الرئيسية الدالة على مأزق الصهيونية ازدواجيتُها وعدمُ وضوحها.

١ ـ ٢ ـ Golda Meir, **Ma vie**, op. cit, p. 361, 142.

إذا كانت القيمة، كما يقول پيريز، هي للمعرفة لا للأرض، فلماذا لا يَنْسحب الصهاينة من الأراضي التي احتلّوها؟!

ونَذْكر هنا للمثال الموقفَ ذا الوجهين لليا رابين، زوجةِ رئيس وزراء الكيان الصهيوني إسحق رابين الذي اغتيل عام ١٩٩٥ على يد متطرفين صهاينة. فقد اعتبر بعضُ الصهاينة رابين بطلاً للسلام، وهو الذي وَضَعَ اتفاقَ أوسلو مع الفلسطينيين وكانت ليا رابين على خطّ زوجها تدعو إلى السلام مع العرب وتُشيد ببعض علاقاتها بسهى عرفات وبمسؤولين فلسطينيين وأردنيين، ومنهم ضباطٌ تعرَّفتْ إليهم هي وزوجُها في كامبرلي في بريطانيا في إحدى الدورات العسكرية لزوجها. ومع ذلك، فإنّها في كتابها الصادر عام ١٩٩٧ لا تتوانى عن اتهام الشعب العربي في فلسطين بالإرهاب [١] فإذا كانت «داعية السلام» من بين الصهاينة تصف مَنْ يدافع عن أرضه وممتلكاته بهذه الصفة، فماذا يبقى لباقي الصهاينة؟ وإذا كان لا بد من مفاوضات بين العرب والصهاينة، فمع مَن مِن الصهاينة تكون هذه المفاوضاتُ إذا كان «دعاةُ السلام» لا يعترفون بالحق المشروع للفلسطينيين بالدفاع عن أنفسهم ومقاومة الاحتلال؟

وتَذْكر ليا رابين أنّه عند استقبالها هلموت كول، المستشارَ الألماني، على حفل عشاء عام ١٩٩٥، انفطر قلبُها عليه لأنّه كان جائعًا [٢] ولكنّ قلبها لم ينفطر على السجينات الفلسطينيات في سجون الكيان الصهيوني، اللواتي طالبتها صديقتُها سهى عرفات مرارًا بالإفراج عنهن.[٣]

ونَذْكر مثالاً آخر، هذه المرة عن شمعون پيريز، داعيةِ «السلام» ورئيسِ الوزراء الإسرائيلي السابق. ففي كتابيْه **زمن السلام أو الشرق الأوسط الجديد** (وكان برنامجَه الانتخابي)، **ولتشرق الشمس** الذي صدر عام ١٩٩٨، لا يفتأ يدعو إلى السلام، وأحيانًا كثيرة بشكل رومنسي، كأنْ يقول «إنّ الحروب لا تفيد في شيء، ولا تحلّ أيّة مشكلة، بل هي تخلق المشاكل.»[٤] ولكنّه، في المقابل، عندما كان رئيسًا للوزراء عام ١٩٩٦، لم يرفّ له جفن حين أطاح بكلّ الأعراف والقوانين الدولية، فأعطى الضوءَ الأخضرَ لجنوده لكي يرتكبوا مجزرة قانا التي راح ضحيتَها مئاتُ الأبرياء الذين التجأوا إلى مركز للأمم المتحدة قصفتْه الطائراتُ الإسرائيلية.

وهو لا يتردد في القول «إنّه يجب أن نَقْطع مع الماضي.»[٥] وإنّ على العرب أن ينسوا كلَّ الأعمال الهمجية التي قام ولا يزال يقوم بها الصهاينةُ في الوقت الراهن إلاّ أنّه يذكّرنا بأنّ الصهاينة لا ينسون أنّهم سكنوا هذه الأرض، فيمن سكنوها، قبل ثلاثة آلاف عام!

ويؤكّد في كتابيْه أنّه مع التطور التكنولوجي، إذ لم يعد للأرض قيمة لأنّ القيمة أصبحتْ للمعرفة،[٦] وأنّ الاقتصاد لم يعد اقتصادَ «الأرض» بل اقتصاد «الدماغ» (العقل). فإذا كانت الأرض في نظره لم تعد لها قيمة، وانحصرت القيمةُ بالمعرفة والعقل، ومادام بين الصهاينة الكثيرون من أهل الفكر والعلم، فلماذا لا يريد الصهاينةُ الانسحابَ من الضفة وغزة بل ومن نسبة قليلة من هذه الأراضي؟ من الواضح أنّ هذه النظرية صالحة تجاه طرف واحد فقط، وهي دعوة «عقلية» صريحة للعرب كي ينسوا أنّ لهم أرضًا مغتصبة؛ فالقيمة كلّ القيمة أصبحتْ في مكان آخر لدى الصهاينة، الذين يحقّ لهم امتلاكُ «العقل» والأرض معًا!

جانب آخر يعكس ازدواجيةً قاتلةً في الصهيونية، ويتعلّق بالديانة اليهودية فالكيان الصهيوني بُني على أساس أنّه يمثّل دولة قومية لليهود تَرْتكز على الديانة اليهودية وتعاليمها وتاريخها. ولكنّنا نرى العديد من القياديين البارزين للصهيونية يردّدون أنّهم غير

---

١ ـ ٢ ـ ٣ ـ Lea Rabin, **Itzhak Rabin, notre vie, son heritage**, Editions Robert Laffont, 1997, p. 70, 249, 275, 276.

٤ ـ Shimon Peres, **Que le soleil se leve**, Editions Odile Jacob, 1999, p. 186.

٥ ـ ٦ ـ المرجع السابق، ص ١٢٦،١٢٥،١١٧، Shimon Peres, **Le Temps de la paix**, Editions Odile Jacob, 1993, p. 11, 12

يبني هرتزل كل الصهيونية على معاداة اللاسامية لليهود. لكنّ الصهيونية هي التي نكلت بالعرب الساميين ونظّمت الاعتداءات على اليهود العرب

متديّنين تذكر مائير في كتابها **حياتي**[1] أنّها رفضت الزواجَ زواجًا دينيًا بحسب الطقوس اليهودية وبحضور حاخام، وكانت تريد الزواج زواجًا مدنيًا من زوجها اليهودي في بلدية ميلووكي في الولايات المتحدة. وهي لم تقبل بالزواج الديني إلاّ بعد صراع مرير مع والدتها التي هددتها بأنّ الزواج المدني لابنتها يعني موتَها (أي الوالدة). وفي مكان آخر من كتابها تصف إحدى زياراتها لحائط المبكى وتقول: «شخصيًا لم أكن كليًا متديّنة والحقيقة أنّني زرتُ حائط المبكى من دون انفعال كبير، كواجب يجب عليّ تلبيتُه »[2]

دليل آخر في هذا السياق أنّه يومَ إعلان الكيان الصهيوني في ١٤/٥/١٩٤٨، وفي الجلسة الصباحية للمجلس الوطني التي كان سيُبَتُّ فيها باسم الكيان والنص النهائي للإعلان، حصلتْ مشادةٌ استغرقت وقت الجلسة برمّته (كلّ الصباح). فقد طُرح السؤال: هل يجب الإشارة إلى الله في نص الإعلان أو لا؟ وكانت آخر جملة في النص تبدأ بعبارة «واثقين [أو مؤزّرين] بصخرة إسرائيل.» ولكنّ الحاخام فيشمان ـ ميمون أصرّ على إدخال كلمة «المخلّص» Redempteur، في حين أكّد آرون زيسلينغ أنّه «لا يستطيع أن يوقّع على وثيقة تشير، أيًا كانت هذه الإشارة، إلى إله لا يؤْمن به.» وكان على بن غوريون أن يمضي كلَّ الصباح في إقناع زيسلينغ وفيشمان ـ ميمون بأنّ تعبير «صخرة إسرائيل» له معنيان... إلى أن اقتنع فيشمان ـ ميمون في النهاية بعدم الإشارة إلى «المخلّص »[3] وتعلّق مائير على ذلك قائلة «إنّ النقاش كان أبعدَ من خلاف على مصطلحات، حتى لو كنّا ننتظر من رئيس وزراء صُوَريّ أن يهتمّ بقضايا أخرى بدلاً من أن يضيع وقته بترّهات كهذه.»[4]

وأخيرًا لا آخرًا موضوع اللاسامية. يعتبر هرتزل أنّ اللاسامية هي العدو الرئيسي لليهود، والعاملَ المحبِطَ لهم ويسوق على ذلك البراهينَ في صفحات طويلة من كتابه **دولة اليهود**، بل ويبني كلّ النظرية الصهيونية على معاداة اللاسامية لليهود ولكنْ، في المقابل، فإنّ الصهيونية هي التي نكّلتْ فيما بعد بالعرب الساميين، علمًا أنّ اليهود العرب عاشوا آلافَ السنين بين إخوانهم العرب دون أن يتعرّضوا لأيّ اضطهاد، وهي التي كانت السببَ الرئيسي لردود الفعل السلبية على اليهود في الشرق بعد دخولها إليه، بل كانت أحيانًا كثيرةً هي التي تنظّم وتنفّذ الاعتداءات على اليهود العرب لدفعهم إلى مغادرة البلاد العربية ويكفي أن نذكر أنّ الأيادي الخفية للصهيونية هي التي وقَفَتْ خلف التعديات على يهود العراق الذين كانوا يرفضون الهجرة إلى فلسطين وكان نتيجةَ ذلك التهجيرُ القسري لـ١٨٥،٠٠٠ يهودي عراقي إلى الكيان الصهيوني وهرتزل نفسه يعترف مسبقًا بالمخططات السرية للصهيونية حينما يتساءل في كتابه عَمَّن سيَدْفع باليهود إلى الهجرة إلى الدولة اليهودية في حال حصول الصهيونية السياسية على التشريع الدولي خاصةً وأنّ الهجرة طوعية؟ ويجيب. «إنّ اللاساميين سيتولَّوْن هذا الأمر!»[5] وهو يكاد يقول إنْ لم توجد اللاسامية فسنتكفل نحن بأن نوجِدَها ونموِّلَها ونشيرَ إليها بالتعدّي على اليهود الفقراء لكي يهاجروا إلى «دولة اليهود » ذلك أنّ الصهيونية، بقوة نفوذها، كان باستطاعتها أن تنتزع من مختلف الدول العظمى الاعترافَ الشرعي بها وبدولتها، ولكنّه لم يكن بإمكانها ولا يُمْكنها حتى الآن ترحيل اليهود بقوتها الخاصة المكشوفة إلى الكيان الصهيوني

خاتمة

لقد كان المشروع الصهيوني في فلسطين، في أساسه، محضَ مشروع

١ ـ ٢ ـ ٣ ـ ٤ ـ Golda Meir, **Ma Vie**, op. cit, p. 70, 112, 237.
٥ ـ Theodor Herzl, **l'état des juifs**, op. cit, p. 83.

مع اندلاع الانتفاضة انخفضت الهجرة إلى «إسرائيل» وتراجعت السياحة وازدادت البطالة

ماليّ للطبقة اليهودية المتموّلة. ولا شك أنّ أيّ مشروع ماليّ عندما تصبح تكاليفُ صيانته أكثرَ من مردوده فسيبدأ في التهافت. ولا بدّ من وقفة أمام كلام اليهودي كارل كروس: «إنّ الصهيونية لم تكن فقط أفيونَ بروليتاريا اليهود الشرقيين [أي يهود أوروبا الشرقية]، بل كانت أيضًا دعامةً للهذيان الاستعماري للبرجوازية اليهودية.»

إنّ دفاع شعبنا العربي ببطولة وعناد عن حقه لا بدّ وأن يعطي ثماره. والفقيرُ ليس لديه ما يخسره، والمؤمنُ لا يخاف إلاّ ربَّه. وإذا امتزج الفقرُ بالإيمان، فلا توجد قوة على الأرض تستطيع منعَ الفقير من الحصول على حقه.

إنّ ما يُبنى على الباطل لا بدّ وأن ينهار يومًا. ذلك أنّه لا يُمْكن أن يبنى إلاّ بالاعتماد على القوة أو الاحتيال أو الاثنين معًا ولكنّ القوة تشيخ، في حين الحقّ لا يشيخ وأما بالنسبة إلى الاحتيال، فلا بدّ لمن وَقَعَ بشركه أن تَكْشف له الأيامُ هذا الشرك، وأن تصبح معرفتُه بالقدر الكافي لكشفه والخروج منه.

لقد جَنَت الصهيونيةُ على العرب واليهود معًا: جَنَتْ على العرب بزرعها في جسمهم كيانًا مصطنعًا بقوة السلاح، وجَنَتْ على اليهود بأنْ ضلّلتهم بأفكار لا تمتّ إلى الحقيقة بصلة. فلقد أخذت الصهيونيةُ اسم «إسرائيل» من الدين اليهودي وأطلقتْه على الكيان الصهيوني بعد تجويف هذه الكلمة من الداخل. وقد كتب هرتزل في **دولة اليهود** عندما طُرحتْ فكرةُ «زرع» اليهود الفقراء الشرقيين هناك: «لا أحد من القوة والغنى بحيث يَنْقل شعبًا من مكان ويُعيد زرعَه في مكان آخر. إنّ الفكرة وحدها هي التي تستطيع إنجازَ ذلك. وفكرة **الدولة** لها هذه القوة.»[1] وهو يتابع في الصفحة ٨٤: «إنّ فكرة **ادفعْ للناس ليذهبوا إلى ذلك المكان** خطأٌ فادح؛ فكل أموال الأرض لن تكفي» وهكذا كانت الصهيونية الطريقةَ الأقلَّ كلفةً على المتموّلين اليهود لإبعاد اليهود الشرقيين الفقراء من مواطنهم وللاستفادة منهم أداةً استعماريةً في قلب الوطن العربي.

إنّ مأزق الصهيونية ماثلٌ للعيان، بعد أن استنفد مشروعُها «ربحيتَه.» وها هي بدأتْ تترنّح تحت ضربات الانتفاضة. فبحسب وزارة الاستيعاب الصهيونية فإنّ الهجرة إلى الكيان الصهيوني انخفضتْ من ٧٨ ألفًا عام ١٩٩٩ إلى ٦١ ألفًا عام ٢٠٠٠ فإلى ٢٢ ألفًا عام ٢٠٠٢. ويقول الإسرائيلي سيفر بلوكر: «مع اندلاع الانتفاضة الانتحارية، محا السوّاحُ [الأجانبُ] إسرائيلَ من خطط أسفارهم بعد أن صرفوا عام ٢٠٠٠ مبلغَ ٣،٥ بليون دولار.»[2] وهو يُقدِّر نسبة تراجع السياحة بالثلثين، ويتحدّث عن اتّساع عجز الخزينة، وعن ازدياد البطالة لتصل إلى ١٠،٦/١٠٠ «وهو أعلى معدَّل في تاريخ إسرائيل.» ويخلص إلى النتيجة المثيرة التالية «لا يُمْكن لاقتصاد إسرائيل أن يَزْدهر مع تواصل انتفاضة الإرهاب بشكلها الحالي.»[3]

لطالما شدّدت الصهيونيةُ على امتلاكها قنابلَ فتاكَةً قُطْرُها مترٌ وأكثر، وهَوّلتْ على الشعب العربي بها. ولكنّ أيَّ قنبلة إنْ أُطلقتْ، ومهما عَلَتْ في السماء، ستسقط على الأرض في النهاية، وستَتْرك حفرةً بحجم وزنها وقطرها فقط. وكلُّ الحُفَر ستُردم في نهاية المطاف وسيعود البعيدُ من حيث أتى أو يغورُ في الأرض التي أتى إليها. أما الأرض فلا بد أن تبقى لأصحابها

بيروت

---

١ ـ Theodor Herzl, **l'état des juifs**, op. cit, p. 30.

٢ ـ ٣ ـ Sever Plocker, "The Landscape of the Israeli Economy, Society and Policy after 1200 Days of Intifada," www.brookings.edu/fp/saban/events/2003///3.pdf